

درس في التصوف

لقد ذكرني في غير محمود



— مالي أراك
يا بني ضوِّر أعين
الدرس نافراً ؟
— أخشى ،
يا أبتاه ، أن يثقل
على سمعي فينتقل
ذلك على نفسك ،
فالشباب للفض
وهو في شرخه
وعتقوانه ولهذا
النظرة اليائسة
العابسة ، وهي نظرة المدبرين الماجزين ؟

— انظر يا بني إلى هذا الفضاء الطليق ، وأرسل بصرك
في أرجاء الكون الفسيح ... أو ينقص من عفوان شبابك
يا بني أن تكون هذا السيل الدافق وذلك الطود السامق ؟ هل
يحد من شبابك يا بني أن تكون هذا البركان الغوار وذلك الخضم
العنيف الجبار ؟ هل يضريك يا بني أن تكون هذه الزهرة في رقها
وجالها وهذا الليث الكاسر في جده وصرامته ؟
— ومالي وهؤلاء يا أبتاه ، وأنا إنسان ، وهي من الجماد
والنبات والحيوان ؟

— أنت يا بني كل هؤلاء ؛ وهؤلاء كلها أنت ... أنت
الكون العظيم بكل مافيه من قوة وفتوة وجلال وجمال ...
— ولكنني يا أبت أراني فرداً واحداً محدوداً ، فما هي ذى
حدودي أراها ببيني وأحسها بأصابعي
— ذلك يا بني عند النظر المضيّق السقيم ، أو إن شئت فقل
هذه لثة العيون والأيدي ، ثم هي كذلك لثة العقل وحده ، وهذه
كلها أدوات لم يخلقها الله إلا لتفهم المادة المحدودة بالوزنين
والمكاييل ...
— فإن لم أركن يا أبت إلى حواسي وعقلي ، فإلى أي شيء
أركن في فهم الوجود ؟
— إلى فطرة عليا يا بني ، هي فوق العقل والحواس ...
اركن يا بني إلى البصيرة لا البصر ، فالبصر خادع خادع ،
فهو نارة لا يريك الوجود ، وهو طوراً يريك غير الوجود ...

ومضى الرسول بكتاب محمد بنذ السير إلى ذى اللروة ليدفع
كتاب محمد إلى أبي بصير يدعوهُ إلى الأمن والبيعة ، بد جهاد
التمر ومشقة الحياة ؛ فابلق الرسول حتى كان أبو بصير سطيحاً
بين اثنين من صحابته وهو ينشد في صوت يخلج :
الحمد لله المولى الأكبر من ينصر الله فنصره
ودفع الرسول إليه الكتاب ، فتناوله ونظر فيه نظرة ثم أغمق ،
وكانت إغفاءة الأبد !

وسكنت الريح ، وخفت الصوت ، وتجاوب بين الصخور
العم صدى هاتف :
« اللهم قد بلغت ! اللهم إلى أمّتك ودعتك ! »
محمد صبح العريانة

الإيمان « على الطريق تسمى الحى وتمنع الجار ، وكان على اليمين
« أبو جندل » وعلى اليسرة « أبو بصير » ؛ وكانت قرين
للكافة تروّدها وتغيرها بكل قافلة تشدو وتروح ... وانقطع
طريق الرأى والنادى على مكة إلا من أراد أن يُطلّ دمه !

... وتسامع الناس بما هناك ، ففزعوا وراحوا يداولون
الرأى ...

وسى ساعى قرين إلى محمد في المدينة : يا محمد ، نسألك
بالرحم إلا ما أوتيتهم ، فلا حاجة لنا بهم بعد !
وابتسم محمد ، ثم دعا كاتبه ليكتب إلى أبي بصير يدعوهُ إلى
الأمن والبيعة ...

زعمت أنك شيء والوجود شيء آخر، فأنت في نعمة المالم «نشاز»
بنيعض ... والتطبيق العملي على هذه الخطوة الأولى هو أن نحطم
من ذهنك كل ما يميز إنساناً من إنسان، حطم هذه الفواصل
التي تباعد بين الغنى والفقير، حطم هذه الفواصل التي تفرق بين
القرشي والحبشي، حطم هذه الفواصل التي تفاضل بين سامي
وأرى ... فالإنسانية كلها عند الصوق رجل واحد

استغفر الله، بل حطم هذه الحواجز بين الإنسان وأبناء عمومته
وخؤولته من بني الحيوان، فليس هناك أن حرم الله قتل الحيوان
آناً من الزمان، فالحياة كلها عند الصوفي آية واحدة ...

استغفر الله، بل حطم هذه الحدود التي تجعل من الذنوب كأنها
ومن الحيوان كأنها؛ ثم ماذا؟ ثم امح يا بني ما أقامه العقل المتكلف
بين الحي والجماد من حدود ... فإن الوجود بأسره عند الصوفي
كائن واحد

إن أس الهلاك يا بني هي هذه الحواس التي تميز لنا الوجود
قطماً قطعاً فنحسب الوجود أشتاتاً وما هو بأشتات ...
— وكيف السبيل إلى النجاة يا أبت؟

— عليك بثلاثة أمور: أولها الصلاة وأنها للصلاة وألها
الصلاة ... عليك بالصلاة يا بني، فهي قترات أراد لنا الله فيها
أن نخلص من جزئيات الوجود، لتتصل بالواحد القيوم خمس
صرات كل يوم ... ألسنت ترى كيف يحاول اللائل بين يدي ربه
أن يطاق حواسه فلا يبصر مما حوله شيئاً ولا يسمع شيئاً؟
ذلك لئلا تسطل حواسه الفكرة عن الوصل للنشود ... ألا ترى
إلى للمساجد كيف تزداد روعة على روعة، ورهبة على رهبة، حين
يخفت ضوؤها ويهمس صوتها، وحين لا تكون فيها الحركة
إلا في بطء وتناقل ...؟ ولم ذلك؟ ليساعد الفكر على التركيز
في النرض المقصود، والحد من هوائن الحواس ما استطنا إلى
ذلك سبيلاً: فلا نور يبهر البصر، ولا صوت يملأ السمع،
ولا حركة تثير الأعصاب ... عندئذ يتحقق ما أجراه أفلاطون
في محاوره فيدون على لسان سقراط:

«... يكون الفكر على أتمه حين ينحصر العقل في حدود

إن الوجود يا ولدي كائن واحد ضخم. وهذه الإشباه منه جذوع
وفروع وأطراف؛ وهذا الوجود الواحد هو أنت، وأنت هو هذا
الوجود ...

— كيف لي أن أفهم هذا القول يا أبت؟

— إيتني بثمره من تلك للشجرة، فسأحدثك بلغة تفهماها
— ها هي ذي

— ماذا ترى في جوفها؟

— أرى في جوفها بنوراً صغيرة

— أقطع بندرة منها نصفين

— هاأنذا، يا أبت، قد فعلت

— ماذا ترى فيها؟

— لا أرى شيئاً

— إن الجوهر الدقيق التي مجزت عينك أن تراه قد ثبتت
منه هذه للشجرة الباسقة. فصدقتي إن زعمت لك أن من مثل
هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود، وهذا الجوهر التي لا تراه
هو الحق للوجود، هو الرزح للشامل لأطراف الوجود، هو أنت
— ...

— تعال يا بني فضع هذه القطعة من الملح في الماء، ثم أذبه

— لقد فعلت

— إيت لي بالملح التي وضعت في الماء

— لست أراه يا أبت ...

— ولكن ذلك للماء كيف مذاقه؟

— إنه ملح

— ومع الماء جانباً واقرب مني ... إن الملح التي لا تراه

موجود؛ وهكذا نجز أن ترى للوجود الحق في دخية أجسامنا،
ولسكنه موجود، ومن وجود هذا الجوهر الدقيق جاء الوجود .

إنه الحق، إنه الروح، إنه أنت

فهذا الرباط الخفي التي يصلنا بأجزاء الوجود فيجعل منا
كائنات واحداً، قد لا تبصره العيون، ولا تحسه الأيدي، ولكنه
مع ذلك موجود . وذلك يا بني أول ما أريد أن أملك إياه: الوجود
كحقيقة واحدة لا تفرق بين إنسان عارف وكون مجهول؛ فإن

المحفوظة ، فأهملته ولم تأبه لشيء مما يتصل به ، فلمست بمنصبك جديراً ، وإن شغلك المنصب بحيث تندك قوائم تقصك لو أفلت منك ، فلمت كذلك بالمنصب جديراً . فالرجل الحق هو الذي يندل وسمه مجاهداً يريد للنجاح ولا يخور للفشل... إن التصوف الصحيح ليريدك على أن تنفخ في المالم بقدر وتمسح منه بقدر ، بهذا تكون سيد نفسك ، ولا تصبح أنوبة لاعب في أيدي القدر ...

وتعلم يا بني أخيراً أن العالم الحق لا يكون كذلك إلا إن كان متصوفاً ، فهل رأيت طالاً لا يُفنى نفسه إثناء في سبيل علمه ؟ هل رأيت طالاً لا يضحي بشواغل الحياة الصغرى ليصل في بحثه إلى الحقيقة الكبرى ؟ هل رأيت طالاً صحيحاً يجيل مع هواه فيثبت حقيقة تمجبه ويحذف حقيقة تؤذيه ؟ ثم ماذا ؟ ثم هل رأيت طالاً لا يجب موضوعه إلى درجة الفتنة والجنون ؟ وما موضوعه ؟ هو الوجود أو ناحية من نواحيه ؟

— لو كان للتصوف يابث هو أن أو نخي بين أجزاء الوجود فأنا أول المتصوفين ، ولو كان للتصوف يا ابتاه يدعو إلى إهمال الأجزاء الحميمة الصغرى لينتقد للفكر على مهمة كبرى فأنا أول المتصوفين ، ولو كان للتصوف معناه الجهاد المخلص في سبيل الحق فأنا أول المتصوفين

زكي نجيب محمود

نفسه ، فلا يمكر صفوه أصوات في السمع ولا رؤية في البصر ، ثم لا يمكره شعور بألم أو شعور بلذة ... يكون الفكر على أتمه حين تنحصر روابطه بالجسم في أضيق دائرة ممكنة ، فلا إحساس في الجسم ، ولا وعي في الشعور ... هتدئذ بطمح الفكر أن يصل إلى الكائن الأسمى ،

وتلك هي الفكرة الثانية التي أريد أن أهلك لإها يا بني هذا المساء : فارتفع عن صفائر الأشياء ما استطعت إلى الترفع عنها سيلاً ... إن هذه الأجزاء أشباح زوائل ، ويسقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ...

— يا لمول ما تريد مني يا ابتاه ! إن لحة الحياة وسداها هي هذه الأجزاء التي تدركما الحواس ، فإن حكمت لي على الحواس بالطمس ، وعلى هذه الأجزاء بالبطلان ، فقيم عساي أن أجاهد في حياتي ، ولعلما علمتني أن الحياة جهاد ! ؟

— لقد أخطأت يا ولدي ، فإنما أردت لك أن تهمل أحداث الحياة الصغرى لتتعلق نفسك بعمانيها الكبرى ، وفي هذا فليجاهد المجاهدون ... إنما أردت لك أن تهمل للشعور لتعصب من اللباب ... فاجر ما تبريك به الحواس ، لينسني لك أن تقبل على الحياة إقبال الجري الباسل الذي لم تعد تهزمه المخاوف الصغرى والأخطار التوائه !

إن النبي عليه الصلاة والسلام حين قال : يا عم ، والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ... إنه حين قال ذلك كان للتصوف الأكبر الذي أهمن صفائر الحياة وقلائد الحس لينصرف إلى أداء الرسالة الكبرى مهماتي في سبيل أدائها من عناء وتلك هي الفكرة الثالثة التي أردت أن أهديك بها اليوم : أترك جانباً من الحياة لتمن في جانب . انفض عن كاهلك غبار الدنيا من ناحية لتقبل عليها تقياً تقياً من ناحية أخرى ...

إن للتصوف يريدك أن تقف من دنياك موقفاً وسطاً بين الإهمال والإقبال ، فإن أنت أهملت الحياة كأنك لست منها ، فلمت بالتصوف الحق ، وإن أنت أقبلت على الدنيا كأنها عندك كل شيء فلمت بالتصوف الحق ... إن شغلت منصباً من مناصب الدولة

وزارة الدفاع الوطني

تقبل عظامات لثاية الساعة ١٢ ظهر
يوم ١٧ مارس سنة ١٩٤٦ عن توريد
الخبز — اللبن — اللحم البلدي —
حطب الحريق — الملح اللازم للجيش
والشروط بقسم المشتريات والمقود .

٧٧٥٥